

## الباب الثاني والثمانون: في الصبر والتأسي والتعازي والمرائي ونحو ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في الصبر

قال الله تعالى: ﴿ويُشر الصابرين \* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾<sup>(١)</sup> وقال ﷺ: ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدا فأحدث استرجاعاً؛ إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها. وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزينا، أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكانما يشكو الله، ومن تواضع لغني سأله ما في يده أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطي القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار أبعد الله عن رحمته، لأنه هو الذي فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن». وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم». يعني قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾<sup>(٢)</sup>. وعن أبي سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي، وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك».

وروى أنه لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب، ولكن هذه الرحمة جعلها الله تعالى في قلوبنا، ومن لا يُرحم لا يُرحم فإن القلب يخشع، والعين تدمع وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. ولا نقول إلا ما يرضي الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أول شيء كتبه الله في اللوح الحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي، مَنْ استسلم لقضائي، وصبر على بلائي وشكر نعمائي، كتبه صديقاً ويعتبه مع الصديقين. ومَنْ لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي فليتحذر بأسوائي. وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان، لأن إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة.

وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة. فقال: لا تبكي يا بنتاه قولني إذا مت إنا لله وإنا إليه راجعون فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله قال ومني. وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال النبي ﷺ: «من أصابته مصيبة، فليذكر مصيبتيه بي فإنها أعظم المصائب». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى

(١) سورة: البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٧١.

عنه أنه قال: «من أخذت حبيته يعني عينيه، فصبر واحتسب أدخله الله الجنة». وقيل إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت له: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك. فقال لها ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها. فلم يلبث إلا يسيراً أن عوفي. وقيل الصبر مفتاح الظرير، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل عنه، من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه. وقيل إن معاوية رضي الله تعالى عنه، خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارَةَ الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتاني نعي سيد شباب العرب. فقال له ابني أبو ابنك. قال بل ابنك. قال للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه. وقال سويد السدوسي:

فأوصيكما يا ابني سدوس كلاكما      بتقوى الذي أعطاكمما وبراكما  
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعمَةً      وصبرٍ لأمرٍ الله فيما ابتلاكما

وقال:

أيا صاحبي إن رميت أن تكسب العلا      وترقى إلى العلياء غير مزاحم  
عليك بحسن الصبر في كل حالٍ      فما صابراً فيما يروم بنادم

وقال آخر:

هو الدهر قد جربته وبلوته      فصبراً على مكروهه وتجلدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقالت: نضر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للعالم مدلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ، وأكبر الأحداث بعده فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر فأقول إنا لله وإنا إليه راجعون ومستعينة بأكثر الاستغفار لك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا رازنة على القضاء فيك. ولما مات ذر الهمداني جاء أبوه فوجده ميتاً وكان موته فجأة وعباله ييكون عليه فقال: ما لكم والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق، ولا أصبنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا في مثله. ولما وضعه في حفرته قال: رحمك الله يا بني وجعل أجري فيك لك، والله ما بكيت عليك، وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لك محبباً وما بي إليك من وحشة، وما بي إلى أحد غير الله من فاقة وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك، عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلاع لتمنيت ما صرت إليه. فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك. اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني فلا تحرمني ولا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه فإنك رحيم بي وبه. اللهم قد وهبت لك أساءته لي فهب لي إساءته إليك فإنك أجود مني وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً، وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك فقلت ﴿اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾<sup>(١)</sup> اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقي فاغفر له ما قصر فيه من حقك فإنك أولى بالجد والكرم فلما أراد الإنصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركتك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك.

(١) سورة: لقمان، الآية: ١٤.

وفي الحديث: إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة ماذا قال عبيدي عند قبض روح ولده، وثمرة فؤاده؟ فيقولون إلهنا حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أنني بنيت له بيتاً في الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه دفن ابناً له وضحك عند قبره، فقيل له أنضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان. فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة. وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها واحتسب وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾<sup>(٢)</sup> الآية. اللهم رضي لنا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

## الفصل الثاني: في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «قال من عزى مصاباً فله مثل أجره» وروينا في كتاب الترمذي أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ: «من عزى ثكلى كُسي برداء في الجنة». وروينا في سنن ابن ماجه والبيهقي بإسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلال الكرامة يوم القيامة». واعلم أن التعزية هي التصبر، وذكر ما يسلي صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته وهي مستحبة. فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أيضاً داخلة في قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾<sup>(٣)</sup> وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية. وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده. وتكره بعد ثلاثة أيام لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين، وهما إذا كان المعزي أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة. وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فبأي لفظ عزاه حصلت. واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم عظيم الله أجرك وأحسن عزاءك وغفر لميتك. وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك، ولا نقص لك عدداً. روي أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه، فقالوا يا رسول الله ﷺ الذي رأيت هلك. فلقية النبي ﷺ فسأل عن بئيه فقال يا رسول الله هلك فعزاه فيه. ثم قال يا فلان أيما كان أحب إليك إن تمتع به عمرك أولاً تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتح لك. فقال: يا رسول الله سَبَقَهُ إلى باب الجنة أحب إلي من التمتع به في دار الدنيا قال: ذلك لك.

وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمهما الله أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن

(١) سورة: محمد، الآية: ٣١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٢.

فجزع عليه جزعاً شديداً فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخي عزّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أمّصّ المصائب فقد سرور وحرمان أجر فكيف إذا اجتماعاً مع اكتساب ووزر ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً. وروي عن ابن المبارك قال: مات لي ابن فمر بي مجوسي، وقال: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال اكتبوا منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: مات لي ابن فكتب إليّ رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل سلام عليكم فإني أحمد الله الملك، الذي لا إله إلا هو، أما بعد فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية، وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم. ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى، وكان ابتك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة، متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت فاصبر واحتسب واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً. وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان إذا عزي مرزاً قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذا كنت مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك. وعزي الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إنّا نُعزِّيك لا إنّا على ثقة  
من الحياة ولكن سنّة الدين  
فما المعزّي يباق بعد ميته  
ولا المعزّي ولو عاش إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه: أنت يا أخي أعزك الله، عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وأنها لم تعط إلا أخذت، ولم تسر إلا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخريين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون. وعزي رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول:

تعز أمير المؤمنين فإنه  
لما قد ترى يغدو الصغير ويولد  
هل الابن إلا من سلالة آدم  
لكل على حوض المنية مورد  
وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:  
الموت أخفى سوءة للبنات  
أما رأيت الله سبحانه  
ودفنها يروي من المكررات  
وقد وضع النعش بجانب البنات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخي والقضاء نازل، والموت حكم شامل وإن لم تُلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة، والدمعة الساكبة، حاجباً من فضلك، وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومانعاً من يقينك. فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنع إذا لم تقابل بالشكر فصبراً صبراً فحول الرجال لا تستغزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزيز عليّ أن أخاطب مولاي معزياً، وأكاتبه مسلياً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتمي إلى جملة، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم، والركن الأشد، والسهم الأسد، والشهاب الأسطع، والحسام الأقطع. لكن التعزية سيرة سائرة وسنة ماضية غابرة، وقدر الله هو المقدر، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع، والتعزية يستوي فيها الأشرف والأوضع، لأجلت مولاي أن أفاتحه معزياً، وأخاطبه

مسياً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم، والسابق لا يتقدم، فبمولاي يقتدى في الصبر على النوائب، وينوره يهتدى في مشكلات المذاهب، وكل ما كان من الردى أرجع كان الأجر عليه أوسع، جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وعظم أجره وجعل الجنة نصيبه. وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بني سوء الخلف أضر عليت من فقد السلف.

ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بكرة من المال وقال: من بالغ في تعزيتي فهي له. فدخل عليه إعرابي وقال عظم الله أجر الملك كفيت المؤنة، وسترت العورة ونعم الصهر القبر. فقال قد أبلغت وأوجزت ثم دفعها له. وعزت أعرابية قوماً فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانته على طول البلى وأجركم ورحمه. وكان لعلي بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً فعزاه علي بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال: يا ابن رسول الله، إن ابني كان مسرفاً على نفسه فقال لا تجزع. فإن من ورائه ثلاث خلال أولهن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله. والثانية شفاعة جدي ﷺ، والثالثة رحمة الله التي وسعت كل شيء فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال؟

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة. فقال عمر اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته. فقال رجاء أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم. وقال إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم وقال لولا أن نرفت هذه العبرة لانصدع كبدي ثم إنه لم يبك بعدها. وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدي لهم طعاماً، ووكلني بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة، في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد فعلت. فلم يدخل إليها أحد فعلمت لأن الإسكندر عزاها في نفسه. ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال لها: أماه، لا تحزني على الفضل فأنا خلف منه. فقالت كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك، فعجب المأمون من جوابها وكان يقول: ما سمعت قط أحسن منه، ولا أجلب للقلوب. فقال لها عليك بالصبر فإن فيه مزيد الأجر. وممن جزع على ولده جعفر بن علي لما قتله الحرث قام نساء الحي يبكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحة وألقاها بين أيديهن وقال لهن ابكين معي على جعفر فم زالت النوق ترغو، والشياه تيعر والنساء يصرخن ويبكين، وهو يبكي معهن فلم ير ماتم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهتة بعد سنة تجدد الفرح. ومما قيل في التأسي والتسلي بالخلف عن السلف: قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال:

اصبر يزيدُ فقد فارقت ذائقة  
لا رزء أصبح في الأيام نعرفه  
واشكرُ إلهك من بالملك حاباكا  
كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

وقال آخر:

لا بد من فقدٍ ومن فاقدٍ  
هيهات ما في الناس من خالدٍ

وقال آخر:

تبصّر فلو أن البكا ردّ هالكا      على أحد فأكثِر بكاك على عمر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال:

فلو كان فيضُ الدمع ينفع باكيا      لعلمت غرب الدمع كيف يسيلُ  
فإن غاب بدرٌ فالنجوم طوالعُ      ثوابت لا يقضى لهن أفولُ  
يفات بها في ظلمة الليل حائرُ      ويسري عليها بالفراق دليلُ

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له في تلك الليلة ولد، فقال: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر. وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا      فلا كانت الدنيا القليل سرورها  
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه      فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخراً حين مات ونعته فقالت:

يذكرني طلوع الشمس صخراً      وأنديه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان. فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه. وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنسيه حتى      أفارق عيشتي وأزور رمسي<sup>(١)</sup>  
ولولا كثرة الباكين حولي      على أمواتهم لقتلتُ نفسي  
وما يكون مثل أخي ولكن      أسلي النفس عنه بالتأسي

وقال آخر:

ولولا الأسي ما عشتُ في الناس ساعةً      ولكن إذا ناديت جاويني مثلي

وقال آخر:

وهوّن وجددي عن خليلي أني      إذا شئتُ لاقيتُ الذي أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤديني إلى الصبر والعزا      تردد فكري في عموم المصائب

### الفصل الثالث: في المراثي

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه، وآله بمراث كثيرة. منها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فإنه كان أقرب الناس إليه وهو أول من رثاه فقال:

(١) رمسي: قبري والمعنى أنه قد مات.

ضاقَتْ عليّ بعرضهن الدورُ  
والعظمُ مني ما حيت كسيرُ  
والصبرُ عندك ما بقيت سيرُ  
غيبت في لحد عليه صخورُ  
تعيًا بهنَّ جوائحُ وصدورُ

لما رأيتُ نينا متجنِّدلاً<sup>(١)</sup>  
فارتاعَ عند ذاك لموته  
اعتيق ويحك إن خَلَكَ قد ثوى  
يا ليتني من قبلك مُهلَكِ صاحبي  
فلتحدثن بدائع من بعده

وقال آخر:

كان يغدو به النبات زكياً  
وصراطاً يهدي الأنام سويًا  
ونيباً مؤيداً عريياً  
عائداً بالنوال برًا تقيًا  
كورت<sup>(٢)</sup> شمسه وكن خليًا  
دائم الدهر بكرة وعشيًا

فقدتُ أرضنا هناك نيباً  
خلقاً عاليًا ودينًا كريمًا  
وسراجًا يجلو الظلام منيرا  
حازما عازما حلما كريمًا  
إن يوما أتى عليك ليوم  
فعليك السلام منا جميعا

ورثاه عليه السلام أبو سفيان بن الحرث فقال:

وليل أخي المصيبة فيه طولُ  
أصيب المسلمون به قليلُ  
عشية قيل قد قبض الرسولُ  
تكاد بنا جوانبها تميلُ  
يروح به ويغدو جبرئيلُ  
نفوس الناس أو كادت تسيلُ  
بما يوحي إليه وما يقولُ  
علينا والرسولُ لنا دليلُ  
وإن لم تجزعي فهو السبيلُ  
وفيه سيّدُ الناس الرسولُ

أرقتُ فبات ليلي لا يزولُ  
وأسعدني البكاء وذاك فيما  
لقد عظمت مصيبتنا وجلت  
وأضححت أرضنا مما عراها  
فقدنا الوحي والتنزيل فينا  
وذاك أحقُّ ما سالت عليه  
نبيٌّ كان يجلو الشك عنا  
ويهدينا فلا نخشى ملاماً  
أفاطم إن جزعت فذاك عذرُ  
قبرُ أيك سيّدُ كل قبر

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين

رجع من دفنه فقال:

فعليك يا دنيا السلامُ  
فالعيش بعدهم حرامُ  
والطفلُ يؤلمه الفطامُ

ذهب الذين أجيهم  
لا تذكرين العيش لي  
إنني رضيع وصالهم

(١) فوقه الجنادل: الصخور.

(٢) كورت: عورت.

ورثي بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:  
سألت الندى والجود ما لي أراكما  
وما بال ركن المجد أمسى مهتما  
فقلتُ فهلاًّ مثماً بعد موته  
فقال أقننا كي نعزي بفقده

وقال آخر:

ولا أرتجي في الموت بعدك طائلاً

وفي المعنى لبعضهم:

لقد آمنت نفسي المصائب بعده  
فما أتقي للدهر بعدك نكبة

ورثي أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابنُ سعيدٍ حيث لم يبقَ مشرقٌ  
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفه  
وأصبحُ في لحدٍ من الأرض ميتاً  
سأبكيك ما فاضتْ دموعي فإن تفيض  
وما أنا من رزه، وإن جملُ جازع  
لئن حسنت فيك المراثي بذكرها

وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني  
أخلامي لو غير الحمام أصابكم

وقال العباس بن الأحنف:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا  
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه

وقال آخر يرثي صديقه:

خليلي ما أزداد إلا صبابة  
خليلي لو نفس فدت نفس ميتٍ  
وقد كنت أرجو أن تعيش وإن أمت

تبدلتما عزاً بذلّ مؤبدي  
فقالا أصبنا بابن يحيى محمدٍ  
وقد كتما عبديه في كل مشهدٍ  
مسافةً يومٍ ثم نلوه في غدٍ

ولا أتقي للدهر بعدك من خطبٍ

فأصبحت منها آمناً أن أروعا  
ولا أرتجي للعيش بعدك مرتعاً

ولا مغربٌ إلا له فيه مادحٌ  
على الناسِ حتى غيَّته الصفائحُ  
وكان به حياً تضيئُ الصحاحُ<sup>(١)</sup>  
فحبُّك مني ما تكنُ الجوانحُ  
ولا بسرورٍ بعد قفدك فارحُ  
فقد حسنت من قبلُ فيك المدائحُ

أرى الأرضَ تبقى والأخلاء<sup>(٢)</sup> تذهبُ  
عتبت ولكن ما على الدهر معتبُ

أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر  
سيقى عليك الحزن ما بقي الدهر

إليك وما تزداد إلا تنائياً  
فديتك مسروراً بنفسي ومالياً  
فحال قضاء الله دون رجائياً

(١) الصحاح: الأراضي المستوية.

(٢) الأخلاء: الأصحاب.

ألا فليمت من شاء بعدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا  
أخذها بعضهم فقال:

كنت السواد لمقتني  
من شاء بعدك فليمت

وقال آخر يرثي بعض أولاده:

وقاسمني دهري بني مشاطرا  
ألا لست أسي لم تلذني وليتي  
وقد كنت ذا ناب وظفر على العدا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء: أخبريني بأفضل بيت قلتيه في أخيك فقالت:  
وكنت أعير الدمع قبلك من بكى

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:

لم أنسه وبنو الملوك أمامه  
والثلج قد غطى الربا فكأنها

وقال آخر:

وليس صريرُ النعش ما تسمعونه  
وليس نسيمُ المسك ربا حنوطه

وقال مقاتل بن عطية يرثي الوزير نظام الملك:

كان الوزير نظامُ الملك لؤلؤة  
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها

وقال آخر:

وقبرت وجهك وانصرفت مودعا  
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة<sup>(٢)</sup>  
فالناس كلهم لفقدك واجد  
عجبا لأربع أذرع في خمسة

وكان رجل توفي ولده يوم عيد فقال:

لبس الرجال جديدهم في عيدهم  
أيسرني عيدٌ ولم أر وجهه

(١) تقصفوا: تكسروا.

(٢) قفرة: خاوية.

لا كان ذاك بقا ولا تخليدا  
فهو الخوون مودة وعهودا  
من بعده ذا لوعة مكمودا  
حذرا عليه وجفنها تسهدا  
فبييت مكلوما بها مرصودا  
لأبي الحسين وقد لظمن خدودا  
لما رأيت جمالك المفقودا  
وعلى فراقك لم أجد تجليدا  
أجلا وإن لم أحصه معدودا  
فهناك لا أتجاوز المحدودا  
يوماً على هذا وذاك مزيدا  
أصبحت بعدك بالأسى مهدودا  
وكذاك أنك لم تكن مولودا  
بفراق من يهوى وكان سعيدا  
فعليك جفني لم يزل محمودا  
تسى الأنام كثيراً ولييدا  
ولداً له أو صاحباً مفقودا

فارتفته وبقيت أخلد بعده  
من لم يمت جزعاً لفقده حبيبه  
مت مع حبيك إن قدرت ولا تعش  
ما أم خشف قد ملا أحشاءها  
إن نام لم تهجج وطافت حوله  
مني بأوجع إذا رأيت نوائحا  
ولقد عدت أبا الحسين جلاذتي  
كنت الجليد<sup>(١)</sup> على الرزايا كلها  
ولئن بقيت وما هلكت فان لي  
لا موت لي إلا إذا الأجل انقضى  
حزني عليك بقدر حبك لا أرى  
ما هد ركني بالسنين وإنما  
يا ليت إنني لم أكن لك والدا  
فلقد شقيت وربما شقي الفتى  
من ذم جفناً باخلاً بدموعه  
فلأنظمن مراثياً مشهورة  
وجميع من نظم القريض مفارقاً

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه  
بإحسانه إخوانه وأقاربه

سألت رسوم القبر عمن ثوى به  
أسأل عمن عاش بعد وفاته

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم:

لذي الأبواب إذا فقد الشهاب  
كنوزاً نحوها يسعى الركاب  
فكم علم له ضم التراب  
ثامها وهي عاصية صعب  
شهاب الديدن ما فيه ارتياب  
له من كل رضوان رضاب

مصائب ليس يشبهه مصاب  
إمام قد حوى من كل علم  
ليكي كل ذي علم عليه  
وكلم كلم موانع قد أتته  
فسلطان البلاغ بغير شك  
سقى الله الكريم ثراه صوبا

وقال الصدفي:

الله يوليك غفراناً وإحساناً

يا غائباً في الثرى تبلى محاسنه

إن كنت جرعت كأس الموت واحدة  
وقال محمد بن عبد الله العتيبي يرثي ابناً له:

أضحكتُ بخدي للدموع رسومُ  
والصبرُ يحمّد في المواطن كلها  
إلا عليك فإنّه مذمومُ  
أسفأً عليك وفي الفؤاد كلومُ

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتاً له فقال:

عجباً للمنون كيف أتها  
شملكتنا مصيبتان جميعاً

وله يرثي الأمير يلبغا:

ألا إنما الدنيا غرور وباطل  
وما عجبني إلا لمن بات واثقاً

وقال آخر:

إلى الله أشكو أن كل قبيلة  
وقال رجل يرثي صديقاً له توفي وكان من الكرماء:

ما درى نعشه ولا حاملوه

ولبعض الكتاب في ابن مقلة:

استشعر الكتاب فقدك سالفاً  
فلذاك سوّدت الدواة كآبة

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلمّا إلى معن وقولا لقبّره  
فيا قبر معن كنت أوّل حفرة  
ويا قبر معن كيف وارىت جوده  
بلى قد وسعت الجود والجود ميت  
فتى عاش في معروفه بعد موته  
ولما مضى معن مضى الجود كله

وقال آخر:

عجبت لصبري بعده وهو ميت

وقال آخر:

فديتك لم أصبر ولي فيك حيلة

وقالت ريطة بنت عاصم:

ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

وقفت فأبكتني ديار عشيرتي  
غدوا كسيوف الهند وراد حومة  
فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا  
ولو أن سلمى نالها مثل رزتنا  
على رزتهن الباقيات الحواسر  
من الموت أعياء وردهن المصادر  
بدار المنايا والقنا متشاجر  
لهدت ولكن محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائماً يصلي. فقال له محمد أوجز فأوجز وسلم، فلما أتاه وضع الرأس في حجره، فقال أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا يتقضون الميثاق﴾<sup>(١)</sup> ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

فتى كان يحميه من العار سيفه  
ويكفيه سوات الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعمتك أيام، والملتقى غداً بين يدي الله تعالى. فكان ذلك فألا على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيت يقصر عنه.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة: الرعد، الآية: ٢٠.